

منهج البحث التاريخي



تأليف:
د. حسن عثمان



منهج البحث التاريخي

انقضى ذلك الزمن الذي اعتُبر فيه التاريخ مجرد سرد للحوادث، لكي يحفظ ذكرى الماضي ويمجد الأفعال البارزة في حياة الأشخاص والأمم، أو أنه نوع من الثقافة العامة اللازمة لإعداد الرجال للحياة السياسية أو الحربية، أو أنه فرع من فروع الأدب يُدرس للتسلية وإمتاع النفس.

ولقد ظلَّ التاريخ يتداوله الأدباء حيناً والباحثون المدققون حيناً آخر، حتى تغيرت نظرة العلماء إليه، ووجد البحث العلمي التاريخي، وقصد الدارسون الوصول إلى الحقيقة التاريخية في ذاتها بقدر المستطاع، والتي عن طريقها يُمكن الاستفادة بها في الأغراض السالفة الذكر، ولكن الفائدة في هذه الحال تُصبح قائمة على الوقائع الصحيحة الواضحة. وبذلك توطدت قواعد الدراسة التاريخية في أوروبا في القرن الماضي، وعُنت البيئات العلمية بجمع الأصول التاريخية، ونشرها، والتأليف في شتى نواحي التاريخ وبدراسة (منهج البحث التاريخي).

وإن (منهج البحث التاريخي) لمن الأسس الهامة في تقدم دراسة التاريخ. وقد عُنِيَ به الغربيون، ووضعوا فيه مؤلفات عديدة في لغاتهم المختلفة، واسترشد بقواعده الباحثون في أثناء دراساتهم التاريخية، ولكن الشرق العربي قليل الحظ من دراسة (منهج البحث التاريخي) بالأسلوب الحديث، وإنني أقدم هذا الكتاب خلاصة لبعض المؤلفات الأوروبية، مثل كتابات لانجلوا وسينيوبوس وفيلج وفنستت وكروتشي، مع الاسترشاد ببعض ما كتبه علماء المسلمين في الرواية والحديث، كما أضفت بعض الأمثلة التي عرضت لي في أثناء البحوث التاريخية التي قمت بها.

وأرجو أن يُحقق هذا الكتاب بعض النفع الذي وُضع من أجله، وأن تتلوه كتب أخرى عن النواحي المختلفة في دراسة التاريخ.

مَجْلَدُ الْإِسْلَامِ

لِلتَرْجُمَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوَزُّعِ

INFO@AALAMALADAB.ORG



f t AALAMALADAB

+201000754066

إلى فكري أستاذي العلامة

كارلو ألفونسو نلينو

المحتويات

الموضوع	الصفحة
تصدير الطبعة الثانية	٩
تصدير الطبعة الأولى	١١
مقدمة	١٣
الفصل الأول: العلوم المساعدة	٢٧
الفصل الثاني: اختيار موضوع البحث	٥٩
الفصل الثالث: جمع الأصول والمراجع	٧٥
الفصل الرابع: نقد الأصول التاريخية	٩١
الفصل الخامس: نقد الأصول - تعيين شخصية المؤلف وتحديد زمان التدوين ومكانه	١٠١
الفصل السادس: نقد الأصول - تحرّي نصوص الأصول وتحديد العلاقة بينها	١١٩
الفصل السابع: النقد الباطني الإيجابي	١٣٣
الفصل الثامن: النقد الباطني السلبي	١٤١
الفصل التاسع: إثبات الحقائق التاريخية	١٦٥
الفصل العاشر: بعض القواعد العامة للتركيب التاريخي	١٧٧
الفصل الحادي عشر: تنظيم الحقائق التاريخية	١٨٥
الفصل الثاني عشر: الاجتهاد	١٩٥
الفصل الثالث عشر: التعليل والإيضاح	٢٠٧
الفصل الرابع عشر: إنشاء الصيغة التاريخية	٢١٣
الفصل الخامس عشر: العرض التاريخي	٢١٩
خاتمة	٢٢٥
المكتبة	٢٢٧

تصدير الطبعة الثانية

سبق أن طُبع كتاب «منهج البحث التاريخي» في القاهرة سنة ١٩٤٣م. وقد نفذت طبعته الأولى بعد صدوره بقليل، لقلّة العدد المطبوع منه. ومنذ ذلك الوقت سألني بعض أصحاب المكتبات وبعض الطلاب وبعض الزملاء في هذه البلاد وفي غيرها من البلاد العربية، عن إمكان الحصول على نسخ منه أو عن النظر في إعادة طبعه.

ورأيت أخيراً أن أعيد طبع هذا الكتاب، وأسفت لأن وقتي لم يتسع لتعديل مضمونه على نحوٍ أوسع، إذ أن أكثر وقتي مُستغرق في عملٍ، يجمع بين الأدب والفن والتاريخ، بدأته منذ ربع قرن، وأرجو أن تُتاح لي فرصة إكماله. وعلى كل حال فقد أدخلت على هذا الكتاب بعض الإضافات والتعديلات اليسيرة. وأعتقد أن إعادة طبعه بهذه الصورة لا يخلو من النفع لطلاب التاريخ ودارسيه بخاصة ولطلاب العلم والمعرفة بعامة.

وإني أضُم هذه الطبعة من هذا الكتاب إلى سائر الكتب العربية، التي صدرت منذ أواخر الثلاثينيات، والتي تتناول «موضوع دراسة التاريخ» أو «منهج البحث فيه» والتي أمكنني الوصول إليها، وقد أشرت إليها في قائمة المراجع، مؤملاً أن تحقق جميعاً الغرض الذي وُضعت من أجله.

وإني أتقدم بالشكر والإعزاز إلى جماعة من الأصدقاء الذين كان لهم الفضل في إعادتي نشر هذا الكتاب بالتشجيع الأدبي، أو بشرح مسألة، أو بإطلاعي على بعض الكتب القيمة، أنقدم بالشكر إلى الأساتذة والدكاترة

جمال الدين الشيال، والسيد الباز العربي، ورشاد عبد المطلب، ومحمد محمود الصياد، ومحمد محمد طيفور، ومحمد عبد الفتاح القصاص، والشاطر بصيلي عبد الجليل، ومحمد الخولي، ورينيه خوري، وعلي النشار.

وأقدم بجزيل الشكر إلى رجال دار المعارف لما بذلوه من الجهد ورعاية الصدر في سبيل إخراج هذا الكتاب.

وإني أنتهز هذه الفرصة لتحية الدكتور أسد رستم أستاذ التاريخ بالجامعة اللبنانية في بيروت، ورائد هذه الدراسة المنهجية في اللغة العربية بالمعنى العلمي الحديث.

وأرجو أن يأتي في المستقبل مَنْ يفعل في هذا الصدد أفضل مما فعله السابقون.

حسن عثمان

معهد الدراسات الأفريقية

بجامعة القاهرة

٣٣ شارع المساحة - الدقي

١٥ أكتوبر ١٩٦٤م

تصدير الطبعة الأولى

انقضى ذلك الزمن الذي اعتُبر فيه التاريخ مجرد سرد للحوادث، لكي يحفظ ذكرى الماضي ويمجد الأفعال البارزة في حياة الأشخاص والأمم، أو أنه نوع من الثقافة العامة اللازمة لإعداد الرجال للحياة السياسية أو الحربية، أو أنه فرع من فروع الأدب يُدرس للتسلية وإمتاع النفس. وظلَّ التاريخ يتداوله الأدباء حينًا والباحثون المدققون حينًا آخر، حتى تغيرت نظرة العلماء إليه، ووُجد البحث العلمي التاريخي، وقصد الدارسون الوصول إلى الحقيقة التاريخية في ذاتها بقدر المستطاع، والتي عن طريقها يُمكن الاستفادة بها في الأغراض السالفة الذكر، ولكن الفائدة في هذه الحال تُصبح قائمة على الوقائع الصحيحة الواضحة. وبذلك توطّدت قواعد الدراسة التاريخية في أوروبا في القرن الماضي، وعُنت البيئات العلمية بجمع الأصول التاريخية، ونشرها، والتأليف في شتى نواحي التاريخ وبدراسة «منهج البحث التاريخي».

وإن «منهج البحث التاريخي» لمن الأسس الهامة في تقدم دراسة التاريخ. وقد عُني به الغربيون، ووضعوا فيه مؤلفات عديدة في لغاتهم المختلفة، واسترشد بقواعده الباحثون في أثناء دراساتهم التاريخية، ولكن الشرق العربي قليل الحظ من دراسة «منهج البحث التاريخي» بالأسلوب الحديث، على الرغم من الجهود التي بذلها بعض المشتغلين بالتاريخ قديمًا وحديثًا. ووُجدت أخيرًا محاولة لدراسة هذه الناحية الهامة. فالدكتور أسد رستم يقوم بتدريس «منهج البحث التاريخي» منذ سنوات في الجامعة الأمريكية في بيروت، وقد نشر نتيجة دراسته في كتابه

القيم «مصطلح التأريخ» في صيف سنة ١٩٣٩م، وكان أول كتاب في اللغة العربية عن «منهج البحث التاريخي» بالمعنى العلمي الحديث.

وأرجو أن تُعنى الهيئات العلمية في مصر، وبخاصة كليتي الآداب بالقاهرة والإسكندرية، العناية الواجبة بهذه الدراسة. فمما لا ريب فيه أن دراسة «منهج البحث التاريخي» ضرورية للمختصين في التاريخ، ممّن يتصدّون لكتابته، أو للمشتغلين بتدريسه للطلاب، أو للطلاب أنفسهم، فضلاً عن أن هذه الدراسة ينبغي أن تُكوّن جزءاً من ثقافة جمهور المتعلمين بصفة عامة، لأنها تشحذ الذهن، وتُعلّم العقل العمل المنتظم، وتدرّبه على النقد والتمحيص.

وإنني أقدم هذا الكتاب -الذي سبق أن نشرت بعض فصوله في مجلة الرسالة- خلاصة لبعض المؤلفات الأوروبية، مثل كتابات لانجلوا وسينيوبوس وفلنّج وفنستت وكروثشي . . . مع الاسترشاد ببعض ما كتبه علماء المسلمين في الرواية والحديث، كما أضفت بعض الأمثلة التي عرضت لي في أثناء البحوث التاريخية التي قمت بها.

وأرجو أن يُحقّق هذا الكتاب بعض النفع الذي وُضع من أجله، وأن تتلوه كتب أخرى عن النواحي المختلفة في دراسة التاريخ. وإنني أتقدم بالشكر والتقدير للأستاذ مصطفى السقا المدرس بكلية الآداب بجامعة (القاهرة) لتفضله بمراجعة المخطوطة وبتصحيح الكتاب، كما أشكر زملائي الذين شجعوني على إتمامه.

كلية الآداب

جامعة (الإسكندرية) في يناير ١٩٤٣م.

مُقَدِّمَةٌ

معنى التاريخ - هل التاريخ علم أم فن - أهمية دراسة التاريخ - بعض صفات المؤرخ - منهج البحث التاريخي - دراسة آثار الإنسان ومخلفاته - تحديد قيمة المؤلفات التاريخية .

ما المقصود بدراسة التاريخ؟ وهل تستحق دراسة التاريخ كل ما تبذله الأمم المتحضرة في سبيله من عناء وجهد ومال وزمن؟ وهل يستدعى مضمونه الغور في أعماقه إلى هذا الحد؟ وما الذي يمكن أن نفيد به من دراسة التاريخ وكتابته؟ لكي نصل إلى رأي مناسب بصدد هذه الأسئلة يحسن بنا أن نشير أولاً إلى ما يمكن أن يدلّ عليه لفظ «التاريخ» .

يدلّ لفظ «التاريخ» على معانٍ متفاوتة . فيعتبر بعض الكتاب أن التاريخ يشتمل على المعلومات التي يمكن معرفتها عن نشأة الكون كله، بما يحويه من أجرام وكواكب ومن بينها الأرض، وما جرى على سطحها من حوادث الإنسان . وبدأ المؤرخون الأقدمون كتاباتهم بالكلام عن نشأة الأرض . ومن المحدثين نجد المؤرخ ه . ج . ولز^(١) يبدأ كتابه في «موجز تاريخ العالم» بدراسة نشأة الكون

(١) هربرت جورج ولز (١٨٦٦-١٩٤٦) (Herbert George Wells) . الروائي الاجتماعي المؤرخ المصلح اليوتوبي الإنجليزي . حصل على البكالوريوس في العلوم من جامعة لندن واشتغل بتدريس العلوم ثم عمل بالصحافة وكان عضواً بالجمعية الفابية . وصف في مؤلفاته مساوئ العصر وتطلع إلى بناء عالم جديد على أساس من الاشتراكية والعدالة . ويمتاز أسلوبه بالحيوية والصدق والبساطة والوضوح . =

والأرض، وما ظهر على سطحها من مظاهر الحياة المختلفة، وهو في ذلك يفعل كما يفعل المصور أو المثال الذي يعتمد إلى تشريح جسم الإنسان أو الحيوان، حتى يمكنه أن يرسم الصورة أو يصنع التمثال، على أفضل وجه مستطاع. ثم يتدرّج ولز في عرض تواريخ الأمم والشعوب والحضارات المختلفة منذ نشأتها حتى العصر الحديث معبراً في ذلك عن وحدة البشرية، على الرغم من جزئيات تواريخها وتفصيلاتها.

ويقصر أغلب المؤرخين معنى التاريخ على بحث واستقصاء حوادث الماضي، كما يدل على ذلك لفظ (historia) المستمد من الأصل اليوناني القديم، أي كل ما يتعلّق بالإنسان منذ بدأ يترك آثاره على الصخر والأرض^(١)، بتسجيل أو وصف أخبار الحوادث التي ألمّت بالشعوب والأفراد. وقد تدل كلمة تاريخ على مطلق مجرى الحوادث الفعلي الذي يصنعه الأبطال والشعوب^(٢)، والتي وقعت منذ أقدم العصور، واستمرت وتطورت في الزمان والمكان حتى الوقت الحاضر.

وفي اللغة العربية التاريخ والتأريخ يعني الإعلام بالوقت. وقد يدلّ تاريخ الشيء على غايته ووقته الذي ينتهي إليه زمنه، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة. وهو فن يبحث عن وقائع الزمان من ناحية التعيين والتوقيت

= ومن مؤلفاته «عصر الآلة» و«الرجل غير المرئي» و«حرب العوالم» و«رجال في القمر» و«البيوتوبيا الحديثة» و«كيس» و«زمان الصاروخ» و«موجز تاريخ العالم». ويؤخذ عليه التسرع في أحكامه وعدم صبره على التطور الديمقراطي الوئيد.

(1) Oman, Ch: on The Writing of History, London, 1939. P,2

(٢) هرنشو، ف: علم التاريخ. ترجمة عن الإنجليزية وتعليق وإضافة بقلم عبد الحميد العبادي القاهرة، ١٩٣٧ م ص ٨.

والأستاذ العبادي (١٨٩٢-١٩٥٦م) ولد وتوفي بالإسكندرية. درس في مدرسة المعلمين العليا، وأسهم في بناء لجنة التأليف والترجمة والنشر. وكان ذواً للأدب ودارساً منهجياً للتاريخ الإسلامي. وعلم في كليتي الآداب بالقاهرة والإسكندرية وفي الجامعة الأزهرية وفي دار المعلمين العالية في بغداد. وقام بعدة أسفار إلى أوروبا. وله كتب مترجمة ومنشورة. وامتاز بهدوء الطبع ووقار العلم. وكنت واحداً من تلاميذه وزملائه وأصدقائه.

وموضوعه الإنسان والزمان، ومسائله أحواله المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة للإنسان وفي الزمان^(١).

وحينما أخذ الإنسان البدائي منذ فجر المدنية يقصّ على أبنائه قصص أسلافه ممتزجةً بأساطيره ومعتقداته، بدأ التاريخ يظهر إلى حيّز الوجود في صورة بدائية أولية، وبدأ الإحساس به يتكوّن في ذهن البشرية منذ أقدم العصور، وتدرّج التعبير عن التاريخ مختلطاً أولاً بعناصر من الفن، كالرسم والنقش على الحجر. وعندما سارت البشرية قُدماً في مضمار الحضارة في شتى أساليبها وصورها، رويداً رويداً، أخذ التاريخ يُشكّل أساساً جوهرياً في تسجيل موكب البشرية الحافل الدؤوب، إذ هو المرآة أو السجل أو الكتاب الشامل الذي يقدم لنا ألواناً من الأحداث وفنوناً من الأفكار وصنوفاً من الأعمال والآثار.

ومهما كان من أثر القوى الإلهية أو الميتافيزيقية العليا التي يمكن أن تسيطر على مصائر البشرية وأحداث التاريخ، وهي ما لا يقوى الإنسان بعدد على إدراك كنهها وفهم أسرارها، فإن التاريخ يتخذ مجراه على يد الإنسان بطريق مباشر، وفي ظروف معينة. والإنسان ابن الماضي، وهو ليس ابناً لأبويه فحسب، بل هو ثمرة الخلق كله منذ أزمان سحيقة. والعلاقة وطيدة بين حياة الفرد وبين الحياة في القرون والعُصر الماضي. ويذهب بعض المفكرين مثل بِنْدِتُو كروتشي إلى اعتبار التاريخ كله تاريخاً معاصراً. ولا يستطيع الإنسان أن يفهم نفسه وحاضره دون أن يفهم الماضي. ومعرفة الماضي تُكسبه خبرة السنين الطويلة، والتأمل في الماضي يبعد بالإنسان عن ذاته، فيرى ما لا يراه في نفسه بسهولة من مزايا الغير وأخطائه، ويجعله ذلك أقدر على فهم نفسه، وأقدر على حُسْن التصرف في الحاضر والمستقبل.

(١) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ. القاهرة، ١٣٤٩هـ. ص ٧.

وولد السخاوي في القاهرة سنة ١٤٢٧هـ ودرس بها وتنقل بين مصر والشام والحجاز وصار من علماء التاريخ والحديث. وتوفي في المدينة سنة ١٤٩٧م. ومن كتبه «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» و«التبر والمسبوك في ذيل السلوك».

ولكي ندرك أهمية الماضي وضرورة دراسة التاريخ، فلنفرض جدلاً أننا استطعنا بطريقة ما أن نقطع صلتنا نهائياً بالماضي، وأننا أمكننا أن نحرق دور الكتب، وندمر كل آثار العمران الراهنة، وننسى أنفسنا، فماذا يُنتظر أن تكون عليه حال الإنسان ومصير الحضارة بعدئذ؟ في الأغلب سيحاول الإنسان أن يعود لكي يبدأ من جديد أشياء تشبه أو تختلف عما كان قد بدأه منذ آلاف السنين، حتى يصل إلى مستوى ما، سواء أكان قريباً أم غير قريب من المستوى الذي قطع عنده صلته بماضيه السحيق. فماضي الشعوب وماضي الإنسان حافل بشتى الصور، وهو عزيز عليه في كل أدواره، سواء أكانت عهود المجد والقوة والرفاهية، أم عهود الكوارث والآلام والمحن. والأقوام الذين لا يعرفون لهم ماضياً محدداً مدروساً بقدر المستطاع، لا يُعدّون من شعوب الأرض المتحضرة.

ونحن إذا تصفحنا كتاباً عاماً وافياً عن تاريخ الحضارة الإنسانية، مثل كتاب «قصة الحضارة» الذي ألفه ولا يزال يؤلفه ويل دورانت الأمريكي^(١)، نجده قد وضع في أول الأمر خطةً لصدور كتابه في خمسة أجزاء. ولكنه عدّلها وزادها إلى سبعة أجزاء، ثم عدّلها ثالثةً وزادها إلى عشرة أجزاء، وصدر منها منذ سنة ١٩٣٥م ثمانية أجزاء، وهي:

(١) تراث الشرق القديم، (٢) حضارة اليونان (٣) عصر قيصر والمسيح، (٤) عصر الإيمان، (٥) عصر النهضة، (٦) عصر الإصلاح الديني، (٧) بداية عصر البحث العقلي، (٨) عصر لويس الرابع عشر. وقد شاركته في إعداد هذه الأجزاء، وفي كتابة هذا الجزء الثامن تلميذته وزوجته آريل. ويبقى جزءان قيد الدرس والبحث وهما (٩) عصر فولتير، وكان من المنتظر صدوره في سنة ١٩٦٥م، و(١٠) عصر روسو والثورة الفرنسية الكبرى حتى سقوط الباستيل في سنة ١٧٨٩م، وكان من المنتظر صدوره في سنة ١٩٦٨م، ولم أتمكن من

(١) ويل دورانت (Will Durant) ولد في ولاية ماساشوستس بالولايات المتحدة الأمريكية في سنة ١٨٨٥م. ودرس في نيو جيرسي وفي جامعة كولومبيا في نيويورك. ودرس التاريخ والأدب والفلسفة. وقام برحلات عديدة في أنحاء العالم، وتزوج من إحدى تلميذاته التي عاونته في البحث والتأليف.

الحصول عليهما بعدُ، مع الأسف، مع سماعي بصدورهما. وقرأت أيضًا أن ويل دورانت قد أصدر في سنة ١٩٦٩م جزءًا مكملًا لهذه السلسلة بعنوان دروس أو عبر التاريخ، ولكنني لم أتمكن بعدُ من الحصول عليه.

وتناول المؤلف في الأجزاء التي صدرت من هذا الكتاب أوجه النشاط الإنساني المتنوعة والظروف التي لا يستها، منذ أقدم العصور حتى عصر لويس الرابع عشر، وسيصل فيما بعد إلى سقوط الباستيل فحسب، دون أن يتابع دراسة تاريخ الحضارة الإنسانية بعد ذلك، على اعتبار أنها لا تزال في دور الغليان والتكوين، مما يجعل الكتابة عنها أمرًا أبعد عن مجال قدرته العلمية. وفي الأجزاء المشار إليها شرح ويل دورانت حال الإنسان في بيئته البدائية، ووصف نموه التدريجي، وتناول سير الحضارة وتطورها، ودرس البيئات والملوك والحكام ورجال الدولة، وتناول مشاكل السياسة والحرب والسلام، ودرس مسائل الفلسفة والفكر والدين والعلم والأدب، وفنون التصوير والنحت والعمارة، وفنون الموسيقى، وشرح أحوال المجتمع، ووصف ما نالته الأمم من المجد والرفعة والمنعة، وما أصابها من الهبوط والتدهور والانحلال. وفي سبيل ذلك طاف المؤلف في صحبة زوجته كثيرًا من أنحاء الأرض مرات عديدة متتالية، ومضيا معًا باحثين مُنقبين مُشاهدين مُتأملين مُستلهمين معارفهما وخبرتهما من شتى الأصول والمصادر والآفاق، فجاء الكتاب وافيًا شاملاً، مع تميزه بالبساطة والسهولة والوضوح والسلاسة والعمق والذوق الرفيع، فضلًا عن عنايته بذكر فيضٍ من المصادر والمراجع لِمَنْ يرغب في الاطلاع والبحث مزيدًا^(١)، والكتاب في هذا

(1) Durant, W.: The Story of Civilization:

Our Oriental Heritage. New York, 1935.

The Life of Greece. New York, 1939.

Caesar and Christ. New York, 1944.

The Age of Faith, New York, 1950.

The Renaissance, New York, 1959.

The Reformation, New York, 1957.

The Age of Reason Begins, New York, 1961.

The Age of Louis XIV. New York, 1963.

كله يحاول أن يعطينا صورة -أقرب إلى الصحة بقدر المستطاع- عن المجتمع الإنساني وهو في حالة حركة دائبة لا تفتقر ولا تهدأ أبدًا، إذ^(١) هي الحياة بذاتها مهما كان اتجاهها أو لونها. وهذه الحركة الإنسانية لا تتكرر ولا تُعيد نفسها على المنوال الذي حدث به في عهد مضي. وعلى الرغم مما يمكن أن يوجد بينها من أوجه الشبه، فلا سبيل إلى أن يكون التشابه القائم بينها تشابهًا مطلقًا، لاختلاف المكان وتغير الزمان.

وعلى ذلك فإننا نجد أنه لا غنى للإنسان عن دراسة ماضيه باعتباره كائنًا اجتماعيًا. فينبغي عليه أن يعرف تاريخ تطوره وتاريخ أعماله وآثاره، فيدرس مثلاً العوامل التي أدت إلى حدوث الغارات والحروب وما لابس ذلك. وما خلّفته من الآثار، ويتتبع مثلاً حركة الكشف الجغرافي في أواخر القرن الخامس عشر، وما ترتب على ذلك من تغيير طريق التجارة العالمي بين الشرق والغرب، وما أدى إليه من تدهور أمم وارتفاع أخرى. وينبغي عليه مثلاً أن يدرس العوامل التي أدت إلى ظهور نظام دستوري معين، ويفهم روحه ومضمونه، ويتبين أثره في هيئة الحاكمين وفي مجموع الشعب، وينبغي عليه مثلاً أن يدرس الأسباب التي أوجدت أنواعاً جديدة من الأدب، أو ألواناً جديدة من فنون التصوير والنحت والعمارة، أو أساليب جديدة من فنون الموسيقى، ويبين إلى أي مدى ارتبط ذلك كله بالعصر وبالبيئة وبالعبقریات الأدبية والفنية التي خلقت هذه النماذج المبتكرة في مختلف مجالات الأدب والفن، وما إلى ذلك من أوجه النشاط الإنساني ومقومات الحضارة.

= وكان متبقيًا في هذه السلسلة جزءان كانا في طريق الإعداد على أن يصدرا كالتالي:

The Age of Voltaire (1965).

Rousseau and Revolution (1968).

(١) وقد قامت الإدارة الثقافية بالجامعة العربية بالقاهرة على نشر ترجمة هذا الكتاب منذ ١٩٤٩م، واشترك في ترجمته الدكتور زكي نجيب محمود والأستاذ محمد بدران. وصدر من الترجمة ٢١ جزءًا حتى ١٩٥٩م. ويقوم الآن الأستاذ الدكتور عبد الحميد يونس بمتابعة ترجمة هذا الكتاب. وعلى الرغم من فائدة الترجمة يحسن أن يرجع طالب التاريخ إلى الأصل للتقوية في اللغة الإنجليزية.

وفي أواخر القرن الماضي ومطلع القرن الحالي اختلف بعض رجال العلم والتاريخ والأدب، في وصف التاريخ بصفة العلم أو نفيها عنه. فقال بعض العلماء -مثل و. س. جيفونز^(١)- إن التاريخ لا يمكن أن يكون علمًا لأنه يعجز عن إخضاع الوقائع التاريخية لما يخضعها له العلم من المعاينة والمشاهدة والفحص والاختبار والتجربة، وبذلك لا يمكن في دراسته استخلاص قوانين علمية يقينية ثابتة، على نحو ما هو موجود بالنسبة لعلوم الطبيعة أو علم الكيمياء مثلاً. ومما يبعد بالتاريخ عن صفة العلم، في نظرهم، قيام عنصر المصادفة، ووجود عنصر الشخصية الإنسانية وحرية الإرادة، مما يهدم الجهود الرامية إلى إقامة التاريخ على أسس علمية، على نحو ما يفعل علماء الطبيعة أو الكيمياء وأضرابهم.

ويرى بعض رجال الأدب أنه سواء أكان التاريخ علمًا أم لم يكن، فهو فن من الفنون، وأن العلم لا يمكنه أن يعطينا عن الماضي سوى العظام المعروفة اليابسة، وأنه لا بد من الاستعانة بالخيال لكي تُنشر تلك العظام وتُبعث فيها الحياة، ثم هي بحاجة كذلك إلى براعة الكاتب حتى تبرز في الثوب اللائق بها^(٢). فمثلاً لا يستطيع العلم الطبيعي أن يفسر لنا حريق موسكو في عهد نابليون بونابرت في سنة ١٨١٢م، إلا على أساس قوانين الاشتعال. ولا بد من تدخل المؤرخ لكي يشرح الأسباب والظروف السياسية والعسكرية التي أدت إلى ذلك الحريق^(٣)، ولا بد من قلم المؤرخ -أو قلم الأديب- لكي يصف لنا الحريق وما تركه من الآثار. فكل من العالم الطبيعي والمؤرخ يشرح الحادث بطريقته، وكل منهما يكمل الآخر، وكلاهما ضروري لتقدم المعرفة الإنسانية.

(١) وليام استانلي جيفونز (١٨٣٥-١٨٨٢) (William Stanley Gevons) من رجال الاقتصاد والمنطق. درس في جامعة لندن وعلم بها بعض الوقت. وكتب «نظرية الاقتصاد السياسي» و«المنطق البحث» و«دراسات في المنطق الاستقرائي» و«أصول العلم». وقد جعل نظرية المنفعة أساس بحثه في الاقتصاد السياسي. وامتاز بعمق التفكير، ومات غرقاً.

(٢) هرنشو: (المصدر المذكور) ص ٣ و ٤.

(3) Fling, F.M.: The Writing of History, An Introduction to Historical Method, New Haven, Yale Un. Press, 1966, P.20.

ويرى ف. هرنشو أنه على الرغم من أننا لا يمكننا أن نستخلص من دراسة التاريخ قوانين علمية ثابتة على غرار ما هو كائن في العلوم الطبيعية، فإن هذا لا يجوز أن يجرده من صفة العلم. وعنده أن العجز عن بلوغ أغراض محددة في دراسة الميتورولوجيا مثلاً، بسبب عدم دقة قوانينها، لا يُجيز نفي صفة العلم عنها. وعنده أنه يكفي في إسناد صفة العلم إلى موضوع ما، أن يمضي الباحث في دراسته، مع سعيه إلى توخي الحقيقة، وأن يؤسس بحثه على حكم ناقد اطرح منه هوى النفس، وباعد نفسه عن كل افتراض سابق، مع إمكان التصنيف والتبويب فيه^(١).

ويقول ف. هرنشو إن التاريخ ليس علم تجربة واختبار، ولكنه علم نقد وتحقيق، وإن أقرب العلوم الطبيعية شبهاً به هو علم الجيولوجيا. فكل من الجيولوجي والمؤرخ يدرس آثار الماضي ومخلفاته، لكي يستخلص ما يمكنه استخلاصه عن الماضي والحاضر على السواء. ويزيد عمل المؤرخ عن عمل الجيولوجي من حيث اضطرار الأول إلى أن يدرس ويفسر العامل البشري الإرادي الانفعالي، حتى يقترب بقدر المستطاع من الحقائق التاريخية^(٢)، وعلى ذلك نجد التاريخ مزاجاً من العلم والأدب والفن في وقت واحد.

وإذا كان علم التاريخ ضرورياً للدراسة الخاصة والعامة، ولثقافة الشعوب بعامة، فلا بد من بحثه ودرسه وكتابته، قبل أن يُدرس في المدارس والمعاهد، وقبل أن يُقدّم للمختصين وللمثقفين على السواء. وينبغي أن يتم ذلك بطريقة وافية دقيقة صحيحة، بقدر ما في طاقة المؤرخين من جهد وصدق وأمانة وعدل وذكاء وإحساس وفن وذوق، وبقدر ما يتاح لهم من زمن وإمكانيات في بلدهم، وفي مواطن البحث والدرس في أنحاء الأرض، على أن يكون هدفهم الحقيقة التاريخية بقدر المستطاع، ولا شيء سوى ذلك.

ولا يُدرس التاريخ عفواً ولا يُكتب اعتباطاً، وليس كل من يحاول الكتابة في التاريخ يصبح مؤرخاً، كما قد يتصور بعض الناس، أو كما يتخيل بعض

(١) هرنشو: (المصدر المذكور) ص ٦ و ٧.

(٢) هرنشو: (المصدر المذكور) ص ١٢، ١٣.

الكتاب، حينما يسطّرون صفحات طويلة عن حوادث ماضية أو معاصرة، ويعتقدون بذلك أنهم يكتبون تاريخًا، ما داموا قد أمسكوا بالقلم والقرطاس، ودارت لهم المطابع، وملأت كتاباتهم رفوف المكتبات! فلا بد من أن تتوفر في المؤرخ الصفات الضرورية وأن تتحقق له الظروف التي تجعله قادرًا على دراسة التاريخ وكتابته.

فمن الصفات الواجب توفرها في المؤرخ -كما في غيره من الدارسين- أن يكون محبًا جلدًا صبورًا، فلا تمنعه وعورة البحث ولا المصاعب والعقبات عن مواصلة العمل، ولا توقفه ندرة المصادر، ولا يصرفه عن عمله غموض الوقائع والحقائق التاريخية واختلاطها أو اضطرابها. وينبغي عليه أن يقضي الشهور والسنوات وهو يعمل ويرتحل من بلد لآخر، في وطنه وفي كل مكان يمكن أن يعثر به على ما يفيد. وينبغي عليه ألا يتسرع أو يقتضب تعجيلًا لنيل منفعة، لأن هذا سيكون على حساب العلم والحقيقة التاريخية.

وينبغي على المؤرخ أن يكون أمينًا شجاعًا مخلصًا، فلا يكذب، ولا ينتحل، ولا ينافق أصحاب الجاه والسلطان، ولا يُخفي الوقائع والحقائق التي قد لا يعرفها غيره في بعض الأحيان، والتي قد لا ترضيه أو لا ترضي قومه، إذ أنه لا رقيب عليه غير ضميره. ومن يخرج على ذلك لا يمكن أن يعدّ مؤرخًا. ولا ريب أن الكشف عن عيوب الماضي وأخطائه تفيد إلى حد كبير في السعي إلى تجنب عوامل الخطأ في الحاضر، وعدم الكشف عنها يُعدّ تضليلًا وبُعدًا عن التبصر والمصلحة الوطنية. وقد يكون إخفاء الحقيقة التاريخية عملاً وطنيًا في بعض الظروف، كما تفعل كل الأمم، ولكن لا بد من ظهور الحقيقة بعد زوال الضرورة التي دعت إلى إخفائها، حتى يمكن استخلاص أكبر قسط من الحقيقة التاريخية. ولا يمكن أن يُكتب التاريخ بغير التوصل إلى الوقائع الصحيحة.

ويلزم للمؤرخ أن تتوفر له ملكة النقد، فلا يجوز له أن يقبل كل كلام أو يصدق كل وثيقة أو مصدر بغير الدرس والفحص والاستقراء، فيأخذ الصدق، أو أقرب ما يكون إليه، ويطرح جانبًا ما ليس كذلك. وإذا أعوزت المؤرخ ملكة

النقد سقطت عنه صفته، وأصبح مجرد شخص يحكي كل ما يبلغه على أنه حقيقة واقعة. وليس بهذا يُدرس أو يُكتب التاريخ.

وينبغي على المؤرخ أن يكون بعيداً عن حب الشهرة والظهور؛ وألا يحفل بالكسب والألقاب والجاه والمناصب، وأن يكرّس نفسه لعمله العلمي في صمت وسكون، من دون أن يوزّع جهده هنا وهناك، ودون أن يقوم بأعمال أخرى، نافعة بغير شك، ولكن يمكن أن يقوم بأدائها آخرون على خير وجه، إذ أن الحقيقة العلمية التي قد يكشف عنها تعدل كل ألوان الكسب وصنوف المناصب أو تزيد عنها. وهؤلاء العاكفون المتفرغون للدرس والبحث في كافة العلوم والفنون -ومنهم المؤرخون- هم الذين يقوم على أكتافهم - على نحوٍ أساسيٍّ تقدّم الإنسانية وازدهار الحضارة.

ومن الضروري أن يكون المؤرخ -كغيره من رجال العلم- ذا عقلٍ واعٍ مرتّبٍ منظم، لكي يستطيع أن يميّز بجلاء بين الحوادث، وينسّق أنواع الحقائق، ويفيد بها في الموضوع المناسب، ولكي يكون قادراً على تحديد العلاقة بين حوادث التاريخ في الزمان والمكان، ويربط بينها على اتساق وتوافق. وبغير ذلك تختلط الحوادث أمام المؤرخ وتضطرب تفصيلاتها ويعجز عن الربط بينها، ويفقد صفته كمؤرخ.

ومن الصفات الأساسية للمؤرخ عدم التحيز. فعليه أن يحرّر نفسه بقدر المستطاع من الميل أو الإعجاب أو الكراهية لعصر خاص أو لناحية تاريخية معينة. وهو بمثابة القاضي الذي لا يكون حكمه أقرب إلى العدل إلا بقدر المستوى الذي يصل إليه من البُعد عن التحيز والهوى. وكيف ننتظر ممّن بلغ إعجابه أو كراهته لعصرٍ ما حدّ التحيز، أن يكتب تاريخاً علمياً؟ ألن تكون كتابته ملونةً بالتحيز الذي يجعلها إلى جانب أو آخر، مما يبعد بها عن بلوغ الحقيقة التاريخية؟

وينبغي على المؤرخ أن يكون صاحب إحساس وذوق وعاطفة وتسامح وخيال، بالقدر الذي يتيح له أن يدرك آراء الغير ونوازع الآخرين. وبذلك يمكنه

أن يتلمس أخبار الإسكندر، وقيصر، وعمر بن الخطاب، وصالح الدين الأيوبي، وابن رشد، وميكلائنجلو، وباخ، ولويس الرابع عشر، ونابليون، ونلسون، ومحمد علي، وأحمد عرابي . . . ويحس ما جاش بصدورهم من شتى العواطف، ويفهم بقدر المستطاع الدوافع التي حركتهم لاتخاذ سلوك معين في الزمن الماضي، ويشارك رجال الأمس مواقفهم في ساعات التاريخ الفاصلة، في فترات الانقلاب، وفي عهود المقاومة، وفي ظروف النجاح والفشل. وإن آثار الإنسان لتحدث إلى قلب المؤرخ المجيد فيجد في ثناياها صدى البشر وصدى نفسه، وتتجلى فيه روح العلم والفن، ويبعث التاريخ حيًا، ويحيا في التاريخ، ويعيش للتاريخ.

وإذا فما الطريق الذي نسلكه لدراسة التاريخ وكتابته؟ وما منهج البحث الواجب اتباعه في دراسة التاريخ وكتابته؟

منهج البحث التاريخي هو المراحل التي يسير خلالها الباحث حتى يبلغ الحقيقة التاريخية -بقدر المستطاع- ويقدمها إلى المختصين بخاصة والقراء بعامة. وتلخص هذه المراحل في تزويد الباحث نفسه بالثقافة اللازمة له، ثم اختيار موضوع البحث، وجمع الأصول والمصادر، وإثبات صحتها، وتعيين شخصية المؤلف وتحديد زمان التدوين ومكانه، وتحري نصوص الأصول وتحديد العلاقة بينها، ونقدتها نقدًا باطنياً إيجابياً، وسلبيًا، وإثبات الحقائق التاريخية، وتنظيمها وتركيبها، والاجتهاد فيها، وتعليلها، وإنشاء الصيغة التاريخية، ثم عرضها عرضًا تاريخيًا معقولاً.

وينبغي علينا أن نلاحظ أنه ليس المقصود بالحقيقة التاريخية الوصول إلى الحقيقة المطلقة، إذ أن هذا أمر غير مستطاع لعوامل مختلفة، مثل ضياع الأدلة وانطماس الآثار، ومثل الأغراض والمصالح. ومن ذا الذي يمكنه أن يعرف الحقيقة المطلقة في الماضي أو الحاضر؟ وهل يمكن للإنسان أن يعرف حقيقة ذاته تمام المعرفة؟ فالحقيقة التي يصل إليها المؤرخ هي حقيقة صحيحة نسبيًا، وكلما زادت نسبة الصدق فيها اقترب التاريخ من أن يصبح تاريخًا بالمعنى الصحيح، في حدود إمكانه.

وحينما يعكف المؤرخ على دراسة التاريخ، لن يجد الوقائع أو الحوادث ماثلةً أمامه، وعليه عندئذٍ أن يتجه إلى دراسة وفحص مخلفات الإنسان وآثاره، من كتابات ونقوش ومصنوعات ومنشآت. وآثار الإنسان كلها، تحمل بين طياتها أسرار الحوادث وخفايا التاريخ. وهي تظل أبداً صامتة لا تبوح بأسرارها، إلى أن يتمكن المؤرخ بالدراسة الطويلة وبالتأمل العميق من أن يحملها على النطق، وعلى التعبير عن أسرارها وخفاياها.

ومن الأمثلة التي تساعدنا على إدراك ما يواجه المؤرخ من الصعوبات أن بعض آثار الإنسان قد تُشيد للمبالغة والتعظيم، مثل أقواس النصر التي أقامها نابليون في بعض الولايات الألمانية، والتي لا تدلّ حتماً على أنه أصبح سيد أوروبا على الدوام، أو النوط الذي ضربه تذكّاراً لنزوله في إنجلترا، مع أن ذلك لم يحدث تاريخياً، وسيبقى هذا النوط كذكرى لأملٍ لم يتحقق؛ أو تمثال الرجل الذي يقتل الأسد، مع أن ذلك لا يحدث إلا نادراً، والأغلب أن الأسود هي التي تفتك بالرجال، ولو استطاع الأسد أن يصنع تمثالاً لفتكه بالإنسان لصحّ الوضع، ولكان ذلك معبراً عن الحقيقة^(١). وأحياناً قد يعثر المؤرخ على وثائق مزيفة، سواء أكان ذلك بقصد الدعاية أم الدفاع عن فكرة معينة، أم من أجل الشهرة أم للاتجار والكسب. وعلى ذلك ينبغي أن تدرس آثار الإنسان ومخلفاته بروح النقد والحذر، وكما سنعرف أشياء من ذلك في فصول تالية.

وتتحدد قيمة التاريخ المكتوب بناء على بعض الأسس الجوهرية:

فأولاً: ينبغي أن يُفحص نوع المادة التي استقى منها الباحث معلوماته، أهى نقوش أو آثار قديمة معاصرة ثبتت صحتها وصحة معلوماتها، أهى أصول ووثائق ومراسلات مستخرجة من دور الأرشيف التاريخية وثبت أنها غير مزيفة، وأن معلوماتها صحيحة، وأنه لم يسبق نشرها، أو على الأقل لم يسبق استخدامها بدرجة كافية؟ أم أن المادة التي اعتمد عليها الباحث هي مجرد مراجع ثانوية ليست ذات قيمة علمية؟

(١) Oman: op, cit. p. 26.

وثانيًا: تتحدد قيمة التاريخ المكتوب بناء على قدرة الباحث على الدرس والبحث، وقدرته على نقد ما تحت يده من الأصول والمصادر والمراجع، وطريقته في استخلاص الحقائق وتنظيمها وتفسيرها وعرضها. ويختلف الباحثون في النقد وفي استخلاص الحقائق بحسب اختلافهم في الفهم والتفسير والاستنباط. وأحيانًا يضطر الباحثون في التاريخ إلى وضع افتراضات مختلفة لمحاولة فهم مسألة تاريخية، تواجههم فيها غوامض وفجوات. وأحيانًا يختلف الباحثون في تقدير معنى الحوادث من ناحية الخلق أو السياسة أو الاقتصاد، وبذلك تأتي كتاباتهم متفاوته أو مختلفة. على أن ذلك كله يقدم للمؤرخ آراء ووجهات نظر مختلفة متفاوته عن عصر أو ناحية معينة، ولا يمكن أن يحتكر أحدها صفة الحقيقة، وهي كلها تعطى للتاريخ الحركة والحياة. وتجعل الباحث التاريخي مستمرًا على الدوام، باحتمال ظهور أدلة جديدة تلقي ضوءًا جديدًا على ما قد يكون غامضًا أو مبهمًا من أحداث التاريخ. وبالعكس عدم الاختلاف وعدم التفاوت يسببان الجمود والركود في دراسة التاريخ، وفي سائر ألوان العلوم والمعارف، وفي شتى مظاهر الحياة على وجه العموم.

وثالثًا: تتحدد قيمة التاريخ المكتوب بناءً على بُعد الباحث عن التحيز والأهواء، ومطابقته للواقع بقدر المستطاع. وأحيانًا يتأثر الباحث بروح عصر معين، مثل عصر الحروب الصليبية أو عصر الانقلاب الصناعي أو نمو الديمقراطية أو ظهور الاشتراكية... فيكتب وهو يحاول إخضاع الموضوع المعين لرأيه وفكره. والكتابة التي يطعن فيها كاتب مسيحي على المسلمين في زمن الحروب الصليبية أو العكس، لا تُعدّ في إطلاقها صحيحة. فالكتابة التي يتعمّد فيها الكاتب أن يتخذ اتجاهًا معينًا، قد تُعدّ تاريخًا لنوع من التفكير أو النزعات الإنسانية الجديرة بالدراسة، ولكن لا يمكن أن يُعد ما جاء بها معبرًا عن الحقيقة التاريخية، بالنسبة لما تناولته من الموضوعات.

وبمعنى آخر يمكننا أن نقول إن قيمة التاريخ المكتوب تتحدد بناءً على ثقافة الباحث، وإلمامه بطريقة البحث التاريخي، وبناءً على استعداد الشخصى وملكوته. وكثير من كتب التاريخ تُعدّ من أمتع ثمرات العقول لنضج عقلية

المؤرخ، وثقافته الواسعة، وخبرته الوطيدة، وتبصّره، ونجاحه في إعطاء وحدة واضحة جامعة، وذلك بعكس كثير من الكتب التي تُنسب للتاريخ ظلمًا وافتئاتًا، والتي يكتبها مَنْ لا يفهم التاريخ، وَمَنْ لا يملك النقد، وَمَنْ لا يتصف بالصبر والجلد والصدق، وَمَنْ لا يطلب سوى المنفعة. ولن تزيد مثل هذه الكتابة عن مجرد معلومات موضوعة بين دفتي كتاب. وتصبح مثل هذه الكتب غير جديرة بأسمائها، وقد لا تساوي الورق التي طُبعت عليه.

عينه للقراءة

الفصل الأول

العلوم المساعدة

تمهيد - اللغات - الفيلوجيا - الخطوط - الوثائق - الأختام - الرنوك -
النميات - الجغرافيا - الاقتصاد - الأدب - فنون الرسم والتصوير والنحت
والعمارة - الفنون الموسيقية - التاريخ - طائفة من العلوم الأخرى - الارتحال
والسفر .

المقبل على دراسة التاريخ وكتابه، ينبغي أن يعلم من أول الأمر أنه مقبل
على عمل شاق يتطلب الجهد والتضحية والصبر الطويل، وأنه تلزمه دراسة عميقة
وتحصيل جدّي متنوع، وشأن التاريخ في ذلك هو شأن سائر أنواع العلوم
والمعارف. وأنواع المعرفة الإنسانية متداخلة متشابكة فيما بينها، ولا يمكن أن
يُدرس علم معين مستقلاً بذاته تمام الاستقلال عن سائر العلوم أو المعارف.
فمثلاً لا يستطيع الدارس أن يفهم القرآن الكريم دون أن يُحسن معرفة اللغة العربية
وعلوم القراءات والفقه والحديث الشريف والتصوّف والأدب والتاريخ
والجغرافيا . . . وكلما ازدادت معرفته بهذه العلوم ازداد فهمه واستيعابه لمعاني
القرآن الكريم.

وقل مثل ذلك بالنسبة لدراسة التاريخ، التي هي متصلة بأنواع مختلفة من
المعرفة الإنسانية. فمن الضروري للمؤرخ أن يكون واسع الثقافة، عارفاً بالعلوم
المتصلة بدراسة التاريخ وكتابه. ويمكن أن تسمى العلوم اللازمة للمؤرخ
-أو لغيره من الدارسين والباحثين بالنسبة لموضوع كل منهم- بالعلوم المساعدة

خاتمة

هذا هو الطريق الطويل الذي ينبغي أن يقطعه كل باحث يرغب في دراسة التاريخ والتأليف فيه بطريقة علمية. ولا بد من المرور بكل هذه المراحل واحدة بعد أخرى بصبر وأناة. وليس من الممكن تطبيق كل هذه القواعد دفعة واحدة أو عند القيام بأول بحث تاريخي، بل إن البحث العلمي العملي كفيل بتحقيق ذلك بالتدريج. وعلى الباحث أن يسترشد بهذه القواعد في أثناء البحث العملي ذاته، فيكون بذلك أبعد عن الخطأ وأقرب إلى الصواب.

وفضلاً عن الضرورة في دراسة «منهج البحث التاريخي» للمختصين فيه، ممن يتصدون لكتابته، أو ممن يقومون بتدريسه للطلاب، أو للطلاب أنفسهم، فإن هذه الدراسة ينبغي أن تصبح عنصراً في ثقافة جمهور المتعلمين بصفة عامة، إذ أنها تشحذ الذهن، وتوجه العقل إلى العمل المنتظم، وتدربه على النقد والتمحيص.

ولا يفوتنا أن نذكر في ختام هذا الكتاب أن المؤرخ العظيم ليس سوى رجل ملهم موهوب، أوتي في حياته الروحية حظاً عظيماً من العمق والفيض والخصب، يمكنه من أن يسبر أغوار الماضي، فيسير خلال مفاوزه ومنعرجاته، ويشق طريقه في مرتفعاته ومنحدراته، ويتهادى في أعطاف مروجيه وأزهاره، ويسمع قعقعة سلاحه وقرع أجراسه، ويستكنه خفياه وأسراره، معتمداً في ذلك كله على أصالة فكره، وإرهاق حسه، ومستعيناً بما وهب من جلد وصبر ودأب على البحث والدرس والنقد وتحري الحقيقة في وقائع الماضي وأحداثه، على

النحو الذي ذكرنا، أو ما يقرب منه. وبذلك كله يستطيع أن ينفث من روحه ومن نفسه وحسه تيارًا من الحياة في حياة العصور الماضية، ويعيشها نابضة متجلية في أقرب صورها إلى ما كانت عليه في الزمن الماضي.

وهذا -أو ما يقرب منه- هو التاريخ الذي ينبغي أن يكتب. وهذا هو التاريخ الشامل الحافل، الذي هو الحياة بذاتها، والذي هو الإنسان في ذاته، بشره وخيره، وبكدره وصفوه، وفي كل ظروفه وأوضاعه، وفي حربه وسلامه، وفي فقره وغناه، وفي خبثه وبرائه، وفي غطرسته وتواضعه، وفي جهله وعلمه، وفي أساه وبهجته. وهذا هو التاريخ الذي يشهد، ويسخر، ويتبسم ضاحكًا، ويأسى، ويفخر، ويتمجد. وهناك من يحاول أن يخدع التاريخ حينًا من الزمن، ولكنه في النهاية لا يخدع أبدًا. والتاريخ بوقائعه العلمية المدروسة، وبخبراته المكتسبة عبر الأجيال والقرون، وبروحه الفيضة الشاملة، يعظ ويعلم حانيًا على من هو مستعد لأن يتعظ ويتعلم، ويأسى على من لا يتعظ ولا يتعلم. فهل آن للبشرية أن تتعظ وتتعلم؟

المكتبة

أولاً: مراجع عن منهج البحث في علم التاريخ وما يتصل بدراسة التاريخ:

مراجع عربية:

إتكن، هـ. ج.: «دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ترجمة محمود زايد. بيروت، ١٩٦٣م.

إنجلز، فردريك: التفسير الاشتراكي للتاريخ، ترجمة راشد البراوى. القاهرة، ١٩٤٧م.

أنيس، محمد أحمد: مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني. القاهرة، ١٩٦٢م.

بدوي، عبدالرحمن: اشبنجلر. القاهرة، ١٩٤١م.

بدوي، عبدالرحمن: الموت والعبقريّة. القاهرة، ١٩٦٢م.

جرومان، أدولف: أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية، اشترك في ترجمته مع المؤلف حسن إبراهيم وعبد الحميد حسن. القاهرة، ١٩٣٤م.

حسن، علي إبراهيم: استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ المصري الوسيط. القاهرة، ١٩٤٩م.

حسن، محمد عبد الغني: علم التاريخ عند العرب. القاهرة، ١٩٦١م.

حسن، محمد عبد الغني: التراجم والسير. القاهرة، ١٩٥٥م.

حسن، محمد أحمد: الوثائق التاريخية. القاهرة، ١٩٥٤م.

الدورى، عبد العزيز: بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب. بيروت، ١٩٦٠م.

- رستم، أسد: مصطلح التأريخ. بيروت، ١٩٣٩م.
- روزنتال، فرانز: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي. بغداد، ١٩٦٣م.
- زريق، قسطنطين: نحن والتاريخ. بيروت، ١٩٥٩م.
- زيادة، محمد مصطفى: المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر (التاسع الهجري). القاهرة، ١٩٤٩م.
- أبو زيد، حكمت: التاريخ، تعليمه وتعلمه حتى نهاية القرن التاسع عشر. القاهرة، ١٩٦١م.
- شليبي، أحمد: كيف تكتب بحثاً أو رسالة. القاهرة، ١٩٥٤م.
- الشيال، جمال الدين: التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر. القاهرة، ١٩٥٨م.
- صفوت، محمد مصطفى: التاريخ، أهميته وطرق تدريسه. مستخرج من مجلة العلوم. القاهرة، ١٩٤٢م.
- ضيف، شوقي: الترجمة الشخصية. القاهرة، ١٩٥٦م.
- عباس، إحسان: فن السيرة. بيروت، ١٩٥٦م.
- عثمان، حسن: كيف يُكتب التاريخ. مجلة الرسالة أعداد ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٦، ٤٢٨، ٤٣٢، ٤٣٥، ٤٤٠. القاهرة، ١٩٤٠م.
- فخر الدين، محمد: تاريخ الخط العربي. القاهرة، ١٣٦١هـ.
- كار، أ.: ما هو التاريخ، ترجمة أحمد حمدي محمود. القاهرة، ١٩٦٢م.
- كاسيرر، إرنست: في المعرفة التاريخية، ترجمة أحمد حمدي محمود. القاهرة؟
- الكاشف، سيدة إسماعيل: مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه. القاهرة، ١٩٦٠م.
- كولنجد، ر. ج.: فكرة التاريخ، ترجمة محمد بكير خليل. القاهرة، ١٩٦١م.
- لانجلوا، ش. وسينيوبوس، ش.: المدخل إلى الدراسات التاريخية، ترجمة عبد الرحمن بدوي ضمن كتاب «النقد التاريخي» الذي يتضمن كذلك ترجمة «نقد النص» لبول ماس و ترجمة نصوص فلسفية في التاريخ لكانت وديكارت وبول فاليري. القاهرة، ١٩٦٣م.
- لوبون، جوستاف: فلسفة التاريخ، ترجمة عادل زعيتر. القاهرة، ١٩٤٥م.

ماجد، عبد المنعم: مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامى . القاهرة، ١٩٥٣م.
مارجوليوت، د. س: دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة حسين نصار.
بيروت؟

ما ساهم به المؤرخون العرب في المائة سنة الأخيرة في دراسة التاريخ العربى
وغيره، بقلم مجموعة من المؤرخين، صدر عن الجامعة الأميركية في بيروت. بيروت،
١٩٥٩م.

نف، إيملر: المؤرخون وروح الشعر، ترجمة توفيق إسكندر. القاهرة، ١٩٦١م.
هرنشو، ف. ج: علم التاريخ، ترجمة وتعليق وإضافة بقلم عبد الحميد العبادى.
القاهرة، ١٩٣٨م.

هوك، سيدنى: البطل في التاريخ، ترجمة مروان الجابرى. بيروت، ١٩٥٩م.
وولش، و. هـ.: مدخل لفلسفة التاريخ، ترجمة أحمد حمدى محمود. القاهرة،
١٩٦٢م.

- Acton, Lord J.E.: Lectures on Modern History, 1939.
- Bibliographie Critique des Principaux travaux parus sur l'Histoire de 1600 à 1914 en 1932 et 1933. Paris, 1935.
- Carr, E. H.: What is History. London, 1961.
- Clark, G.K.: Guide for Research Student Working on Historical Subjects Cambridge, 1958.
- Collingwood, R.G.: The Idea of History. Oxford, 1946.
- Croce, B.: Teoria e Storia della Storiografia. Bari. 1920.
- : (Eng. Trans. by D. Ainslie) London, 1912.
- : Primi Saggi. Bari, 1927. (pp. 1-72: La Storia ridotta sotto il concetto generale dell'arte, e Illustrazioni e Discussioni.
- : Conversazioni Critiche, 4 voll. Bari, 1924-1932, Vol. pp. 153-224: Teoria della Storia e Storia della Cultura. Vol. IV. pp. 115-163: Metodologia Storica.
- La Storia come Pensiero e come Azione. Barie, 1938.
- : Crump, C.G: History and Historical Research. London, 1928.
- Deny, J.: Sommaire des Archives Turques du Caire. Le Caire, 1930.
- Dormay, P.A.: Précis de la Science de l'Histoire. Paris, 1888.
- Dutt, R.P.: Problems of Contemporary History. London, 1963.
- Emerson, R.W.: Essays. Oxford, 1927.
- Encyclopaedia Britannica: Diplomats, Heraldry, Numismatics, Palaeography.
- Feuter, E.: Histoire de l'Historiographie Moderne. Paris, 1914.
- Fling, F.M.: The Writing of History. An Introduction to Historical Method. New Haven, Yale University Press, 1926.
- Freeman, E.A.: The Methods of Historical Study. London, 1886.
- Carrigan, G.J.: A Guide to Historical Method. Fordham University Press, 1951.
- Giry, A.: A Manuel Diplomatique. Paris 1894.

- Grant, G.F.: Coins and Medals, Helps for Students of History. London, 1920.
- Grousset, R.: L'Homme et son Histoire. Paris, 1954.
- Hill, G.F.: Coins and Medals, Helps for Students of History. London, 1920.
- Holt, P.M.: Al-Jabarti's Introduction to the History of Ottoman Egypt. Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, vol. XXV. Part 1, 1962.
- International Bibliography of Historical Science. Washington, 1926.
- Kochan, L.: Acton on History. London, 1954.
- Langlois, Ch. V. and Seignobos, Ch.: Introduction Aux Etudes Historiques. Paris, 1898.
- : Eng. Trans. by G.B. Berry. London, 1912.
- L'Histoire et ses Méthodes, Encyclopédie de la Pléade, sous la direction de Ch. Samaran. Paris, 1961.
- Mayer, L.A.: Saracenic Heraldry. Oxford, 1933.
- Oman, Sir Ch.: On the Writing of History. London, 1939.
- Pecchiai. P. Manuale Pratico per gli Archivisti. Milano, 1928.
- Pleckhanov, G.V.: The Role of the Individual in History. (Eng. Trans.) London, 1940.
- : The Materialist Conception of History. (Eng. Trans.) London, 1940.
- Prou, M.: Manuel de Paliographie, Paris, 1925.
- Renier, G.J.: History, Its Purpose and Method. London, 1950.
- Rosentan, Franz: A History of Muslim Historiography. Leiden, 1952.
- Rowse, A.L.: The Use of History. London, 1946.
- Satow, E. A Guide to Diplomatic Practice, 2 vols. London, 1922.
- Shayyal, G. El-Din El.: Historiography in Egypt in the Nineteenth Century, in the Historians of the Middle East. edited by B. Lewis and P.M. Holt. London, 1962. pp. 403-481.
- Taylor, H.: History as a Science. London, 1933.
- Vincent, J.M.: Aids To Historical Research. New York, 1934.
- Woods, F.A.: A Statistical Study in History and Psychology. New York, 1906.

ثانيًا: بعض مراجع علماء المسلمين التي تفيد في دراسة التاريخ:

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام أبو العباس، تقي الدين: مقدمة في أصول التفسير. عني بتحقيقها جميل أفندي الشطى. دمشق. ١٩٣٦م.
جلبي، مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني المشهور باسم حاجي خليفة:

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ج٣. لبيترج، ١٨٤٢م.
ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ولي الدين: المقدمة. القاهرة، ١٩٣٠م.
الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز شمس الدين: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ. القاهرة، ١٣٤٩هـ.
ابن الصلاح، عثمان بن عبد الرحمن أبو عمر تقي الدين: مقدمة في علوم الحديث. القاهرة، ١٣٢٦هـ.
الغزالي، محمد بن محمد أبو حامد: المستصفى من علم الأصول. جزآن. القاهرة، ١٣٢٢هـ.
القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد عبد الله أبو العباس: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. ج٣. القاهرة، ١٩١٤م.
مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري أبو الحسين: الجامع الصحيح، جزآن. القاهرة ١٣٣٩هـ.

ثالثًا: الأصول والمراجع التي استخدمت في دراسة بعض المسائل التاريخية الواردة في هذا الكتاب:

وثائق تركية مخطوطة:

وثائق دار المحفوظات المصرية بالقلعة:

دفاتر كشيده ء ديوان مصر - دفاتر التزامات الاراضى والجمارك - دفاتر مرتبات عساكر القلاع - دفاتر الميزانية.

(قدم مختارات من هذه الوثائق الأستاذ محمد محمد توفيق في ١٩٤١ و١٩٤٢م).

قانون نامه سليمان. مخطوط رقم ٤٨٤٨ ت بمكتبة جامعة القاهرة.

وثائق أوربية مخطوطة:

وثائق أرشيف فلورنسا:

Archivio di Stato di Firenze: F. Stroz. I, 145- F. Med 2077, 4080.

وثائق أرشيف البندقية:

Archivio di Stato di Venezia: Senato - Dispacci - Costantinopoli, F. 80.

وثائق أرشيف فينا:

Haus - Hof - Und Staatsarchiv, Wien: Turkische Urkunden 1617, L. 56.

وثائق المكتبة الوطنية في باريس:

Bibliothèque Nationale de Paris: ms. Français, Constantinople 16147.

وثائق أرشيف لندن:

Public Record Office, London: S.P. Turkey 7 (1612-1620).

مراجع عربية:

أنيس، محمد أحمد: الدولة العثمانية والشرق العربي القاهرة، ١٩٦٣م.
ابن إياس، محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور. ج٣. القاهرة، ١٣١٢هـ.
توفيق، محمد محمد: مصطلح وثائق تاريخ الحكم العثماني في مصر. القاهرة، ١٩٤٣ (لم يطبع بعد).
حسين، طه: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية: ترجمة عبد الله عنان. القاهرة، ١٩٢٥م.

حمزة، عبد القادر: على هامش التاريخ المصرى القديم، جزء١. القاهرة، ١٩٤٢م.
الزركلى، خير الدين: الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعمرين والمستشرقين، ١٠ أجزاء. القاهرة، ١٩٥٤-١٩٥٩م.
سركيس، يوسف إيلان: معجم المطبوعات العربية، ٤ أجزاء. القاهرة، ١٩٢٨م.
الصفدى، أحمد بن محمد الخالدي: تاريخ الأمير فخر الدين المعنى، نشره أسد رستم وفؤاد إفرام البستاني. بيروت، ١٩٣٦م.
عثمان، حسن: فخر الدين بن معن، (١٥٧٢-١٦٣٥). رسالة الماجستير من كلية الآداب بجامعة (القاهرة) سنة ١٩٣٤م (لم تطبع).

عثمان، حسن: فخر الدين الثاني أمير لبنان وبلاط تسكانا (١٦٠٥-١٦٣٥م) لأب بولس قرألى، عرض ونقد مع وثائق لم تنشر. بمجلة كلية الآداب بجامعة (القاهرة) مجلد ٦. القاهرة، ١٩٤٢م.

عثمان، حسن: رحلة هيرودوت إلى مصر. دروس غير مطبوعة أقيمت بكلية الآداب بجامعة (القاهرة)، ١٩٤٠م.

عثمان، حسن: تاريخ الشرق الأدنى في العصر العثماني. محاضرات متفاوتة غير مطبوعة أقيمت بكلية الآداب بجامعة (القاهرة) من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٢م، وبكلية الآداب بجامعة (الإسكندرية) من ١٩٢٤ إلى ١٩٥٠م وبكلية الآداب بجامعة القاهرة من ١٩٤٦ إلى ١٩٦٢م، وفي كلية البنات بجامعة عين شمس في ١٩٥٨م.

عثمان، حسن: الثورة الفرنسية الكبرى. محاضرات غير مطبوعة أقيمت بكلية الآداب بجامعة (القاهرة) في ١٩٤٨م.

عثمان، حسن: حضارة عصر النهضة في إيطاليا، محاضرات متفاوتة غير مطبوعة أقيمت بكلية الآداب بجامعة (الإسكندرية)، عام ١٩٦٩/١٩٧٠م.

عثمان، حسن: تاريخ شرق أفريقيا. محاضرات متفاوتة غير مطبوعة أقيمت بمعهد الدراسات السودانية بجامعة (القاهرة) من ١٩٥٠ إلى ١٩٤٥م، وبمعهد الدراسات الأفريقية بكلية الآداب بجامعة القاهرة منذ ١٩٥٨م.

عثمان، حسن وتوفيق، محمد ومحمد: تاريخ مصر في العهد العثماني (١٥١٧-١٧٩٨م). مستخرج من كتاب المجلد في التاريخ المصرى الذى أصدره بعض أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب بجامعة (القاهرة) بإشراف حسن إبراهيم حسن. القاهرة، ١٩٤٢م. العقيقى، نجيب: المستشرقون، ٣ أجزاء. القاهرة، ١٩٦٥م.

غربال، محمد شفيق: تاريخ الشرق الأدنى في العصر العثماني. محاضرات متفاوتة غير مطبوعة أقيمت بكلية الآداب بجامعة (القاهرة) من ١٩٣٠ إلى ١٩٣٩ وفي ١٩٤٤م.

فريا ون، أحمد بك: منشآت السلاطين. القسطنطينية، ١٢٦٤-١٢٦٥هـ. المعلوف، عيسى إسكندر: تاريخ الأمير فخر الدين المعنى الثاني. جونية، لبنان، ١٩٣٤م.

يورمسون، ج. ا. (مشرف): الموسوعة الفلسفية المختصرة. ترجمة فؤاد كامل وجلال العشرى وعبد الرشيد الصادق وإشراف وإضافة للدكتور زكى نجيب محمود. القاهرة، ١٩٦٣م.

مراجع أوروبية:

- Ammar, A.: Ibn-Khaldoun's Prolegomena to History. Cambridge, 1941. (Unpublished).
- Antal, F.: Florentine Painting and its social Background. London, 1948.
- Arnold, Th.: The Caliphate. Oxford, 1924.
- Cambridge Ancient History. Vol. V. Athens. (401-478 B.C) Cambridge 1927.
- Carali, P.: Fakhr ad Din II. Principe del Libano e La Corte di Toscana (1605-1635). Roma, 1936.
- Chailley, J. Histoire Musical du Moyen Age. Paris, 1950.
- De Sanctis, F.: Storia della Letteratura Italiana, 2 voll. Milano, 1934. translated by Joan Redgern, 2 vols. New York, 1959.
- D'Ohsson, C.M.: Tableau Général de l'Empire Othoman, 7 vols. Paris, 1788-1824.
- Encyclopaedia of Islam, 4 vols. Leyden, 1913-1934.
- Feuter, E.: Storia del Sistema degli Stati Europei dal 1492 al 1559, traduzione di B. Marin. Firenze, 1932.
- George, H.B.: The Relations of Geography and History. Oxford, 1924.
- Histoire de la Musique, Encyclopédie de la Pléiade, sous la direction de Roland - Manuel, t. I. Paris, 1960.
- Jacobs, A.: A New Dictionary of Music. Harmondsworth, 1958.
- Knolles, R, and Ricaut, P.: The Turkish History from the Original of the Nation to the Growth of the Ottoman Empire, with a continuation to this Present year (1687), 3 vols. London, 1687-1700.
- Larousse de la Musique, sous la direction de N. Dufourcq, 2 vols. Paris, 1957.
- Luzzatto, G.: Storia Economica dell'Età Moderna e Contemporanea. Padova, 1932.
- Mairti, G Istoria di Faccardino Grand-Emire dei Drusi. Livorno, 1787.
- Minadoi, G.: Historia della Guerra Fra Turchi e Parsiani. Venetia, 1594.
- Morey, Ch. R.: Mediaeval Art. New York, 1942.
- Mottini, G.E. Storia dell'Arte Italiana. Milano, 1934.

Murray, Peter and Linda: A Dictionary of Art and Artists. Harmondsworth, 1959.

Nallino, C.A.: Appunti sulla Natura del Califfato in Genere e sul Presunto Califfato Ottomano, opuscolo. Roma, 1917.

-: La Fine dei così detto Califfato Ottomano, opuscolo. Roma, 1924.

Osman, H.: Fakhr ud - Din II. Emiro del Libano e le sue Relazioni con l'Occidente, con Documenti Inediti, vol. I. 1572-1618 Roma, 1938. (Tesi di Laurea in Lettere e Filosofia presso l'Università di Roma, non ancora Pubblicata).

Pearce, F.B.: Zanzibar, the Island Metropolis of East Africa. London, 1920.

Semple, E. Ch.: Influences of Geographic Environment. New York, 1911.

Spiegelberg, W.: The Credibility of Herodotus' Account of Egypt, translated by A.M. Blackman. Oxford, 1927.

بعض المجلات التاريخية:

American Historical Review. New York, 1879.

English Historical Review. London, 1886.

La Revue des Question Historiques. Paris, 1866.

Rivista Storica Italiana. Torino, 1884.